القاص محمد علي الشيخ لـ(ثقافة البلاد) :

يستوقفني هاجس البدايات

هجرت قريتي بالرغم من ارتباطي بها روحيا بغرض الدراسة

لم يعد من النوادر أن تسمع عن من قرأ للمتنبي في سن مبكرة

استمتعت بروايات أبي عن فتوحات الملك عبد العزيز

أخي (عبد العالي) غرق في السيل تاركا زوجة ثكلى وطفلا رضيعا

في القرية تتساوى الرؤوس داخل منظومة قيمية

المنعطف التاريخي في ذاكرة القرية للشيخ محمد على مغربي

البدايات مرتبطة بذكريات الصبا والشباب ومرحلة النقاء

في رحلة البحث عن الشمس أصدرت مجموعتي القصصية

حاوره : محمد بن حامد الجحدلي

هكذا هو كما عرفته منذ أكثر من ثلاثة عقود زمنية مضت ، حينما كان أحد أبرز قيادات العمل التربوي ، بشهادة الكثير ممن عرفوه في ذلك الميدان ، وإن كانت معرفتي به متأخرة إلى حد ما ، إلاّ أنه أمتطى صهوة الأدب في مجال هو أحد فرسانه ، وفق تصنيف النقاد وكتاب القصة ، كان لقائي به مصادفة في صيف عام ١٤٠٧هـ ، وها أنا أقدمه لقراء (ثقافة البلاد) التي كانت إحدى انطلاقته الأدبية ، بعد أن تعمدتٍ حتى اللحظة في تأخري لتقديمه ، متعمداً بغية مزيدا من الاستمتاع بمشاركة المتابعين له من القراء والنقاد ، ومن عرفوه في صفحات الثقافة قاصًا وأديبًا ، ألا إنه قليل الظهور وحريص بعدم الاكتراث بالأضواء التي أبهرت العديد ممن يسعون إليها جريًا ، حاولت أن اكتشف شيئا من ذاك وتلك الأسباب ؟ التي كوَّنت منه كاريزما خاصة ، وفلسفة لم يدَّعيهَا وإنما وُصف بها ، وإن لم يعترف بذلكَ ؟ ولعلي هنا استعين بمتابعي محطات هذا الحوار في اكتشاف ما لم أتمكن من اكتشافه ؟ فمع ضيف هذا اللقاء !!

O في البدء دعنا نستفتح لقاءنا هذا بالبدايات والزمن الجميل

غالبا ما تكون البدايات مرتبطة بالزمن الجميل ، وذكريات الصبا والشباب ، وقبلها مرحلة النقاء وهي مرحلة الطفولة ، التي تكونت من خلالها شخصية محمد علي الشيخ ، ولدت في قريتي (أم الجرم) إحدى قرى منطقة مكة المكرمة ، وقريتي لا تختلف هي الأخرى – مثلي أنا – عن بقية القرى المنزوية في ظل الجبال ، والرابضة على الأودية ، غير أن المشيئة التي تأتي ، وكنت تشاؤها ، وتجهل أوانها ، غالبا ما تكون هي ذاتها تحولا في سير الأماكن و الأشخاص .

O وهل طاب بك المقام في تلك القرية كثيرا ؟

كما يبدو لي فأنا من عشاق الترحال منذ وقت مبكر ، فقد هجرت قريتي تلك بالرغم من ارتباطي بها روحيا وذلك بغرض الدراسة ، ثم العمل بعد التخرج في غمار التربية ، والذي تتطلب أدبيات الوظيفة إنه لابد من السكن قريبا من مقر العمل ، فكانت محطتي مدينة جدة حيث فضاء الكلمة واتساع آفاق الثقافة ، هذه المدينة التي فتحت ذراعيها على كل جديد كما هو اسمها اللامع ، ومع هذا الانفتاح وجدتها أكثر تمسكا بطابعها الاجتماعي وتواصلها العائلي وعاداتها وتقاليدها ، وكثيرٌ من أخلاقيات وتسامح أهلها .

O وماذا أيضا تستطيع أن تضيفه عن تلك البدايات ؟

لم يعد من النوادر أن تسمع لمن في مثل سني قرأ لـ المتنبي و أبو العلاء و أبو العتاهية ، وهو لا يزال في الصف الخامس الابتدائي ، فإن فعل فأغلب الظن أنه قرأ عناوين الدواوين فقط في المكتبة المدرسية ، ولم يعد من النوادر أن يؤكد فنان بأنه بدأ الغناء من طفولتهِ الباكرة بشهادة أمه ، كان بكاؤك منغَّماً .. كأنه يغني !! فإن فعل فأغلب الظن أنه يعاني جوعا عوضه فيما بعد بالغناء ، أما المنزلق الثانوي فهو أن يسطو الحديث عن البدايات المكونة للممسك الثقافي ، على الحديث عن مكونات الشخصية ، والتدخلات والتعالقات وما بينها ، واشد حالاته وضوحا عندما يكون المبدع مخترعا أو رجل أعمال ، ولست من هؤلاء.

O هل من حدث ما ... يُعد منعطفا تاريخيا في ذاكرة هذه القرية ؟

كان صاحب المنعطف التاريخي في ذاكرة القرية هو المؤرخ و الأديب الشيخ محمد على مغربي رحمه الله ، ولعل الرجل احتفظ بسجل أعماله الخيرَّة كعادة الباذلين في غير منّه وهم قله ، ولكن نافذة الحديث بقيت مفتوحة جوف الكاتب ، وهو أحد شهود تاريخ هذا الرجل ، فلم نعرف عنه إعلاما أو إعلانا لذكرى بعيده زمانا و مكانا كانت منعطفا في تاريخ القرية ، وكان المعهود والمتعارف أن يكون رافد فخر (يعلنه ويعلم به) لهذا الرجل الذي يحفل تاريخه بالكثير من الانجازات ، لكنه الصمت الذي ألزم به الرجل نفسه ، ليبقى العمل خالصا يرتضي به الثواب ، حينما لا يكون الكلام كلاما ولا الصمت صمتا .

O حدثنا عن ذلك المنعطف التاريخي ؟

وضع الشيخ محمد علي مغربي رحمه الله ، الحجر الثاني (مدرسه خيريه تلتزم بالمناهج الرسمية) بعد أن وضع الشيخ عبد الصمد بن محيي الدين الحجر الأول (الكتّاب) لعمليه تنويرية ، لا تزال حتى الآن ثرية في اختيارها ، راسية كجبال القرية ، بداية كانت هذه المدرسة ، من القش على هيئة بيوت القرية آنذاك ، وعلى هيئتها كانت عندما زارها صاحب الفضل فيها . أذكر ذلك اليوم المشهود الذي خرج فيه أهل القرية فرادى وجماعات ، كان النهار في بواكيره لم تتوهج شمسه بعد ، تولى المعلم (الفقيه) التصنيف والتنظيم في مكان مكشوف في الجانب الغربي من المدرسة .

O وهل كان هناك برنامجا خاصا للشيخ محمد علي مغربي أثناء زياراته المتكررة للقرية ؟

كان على الشيخ محمد علي مغربي (ضيف القرية) أن يأتي باكرا ، ويعود باكرا مجانبة للحر الشديد ، عليه ، وعلى مستقبليه ، ومخافة فيما أظن من التورط في الكرم المشخصن ، حيث يصعب التنازل عن شرف الضيافة لأحد البيوت عن البيوت الأخرى ، لأنها تدخل في حساب مقامات الاجتماع و التاريخ و القصيد ، كان الوقت (ضحى) وقمت خطيبا : (هانحن في عشه والشمس تخبطنا خبط عشواء ...) هذا هو المقطع الوحيد ، الذي لا يزال زملائي في الدراسة يتندرون به ، كلما جمعتنا مناسبة أو مصادفة.

O كيف هو النسيج الاجتماعي الثقافي لأبناء القرية من جيلكم في تلك الفترة المبكرة ؟

ففي القرية تتساوى الرؤوس داخل منظومة قيمية ، غير مكتوبة ولكل فرد حق الكلام و الاحتجاج والقبول والرفض ، أزعم أن الأمر في جوهره شكلا من أشكال الديمقراطية !! وفيما بعد ، أصبحت المدرسة أول بناء إسمنتي في قرية أم الجرم ، ويتكون من أربع غرف على شكل مستطيل مزود بدورة مياه ، وقد كانت إلى وقت قريب أحد معالم هذه القرية ، كما أنها تعتبر أحد رموز نهضتها ... وعاملا فاعلا في تكوين أهلها الثقافي ، إن لم أقل في ثقافتي شخصيا ، وهي كذلك بالتأكيد .

O هل توقفت تلك المبادرات الإصلاحية كالتي بدأها الشيخ محمد علي مغربي ؟

وفي عام ١٣٨٣هـ تأسست أول مدرسه حكوميه بأم الجرم ، وبذلك توقفت مرحلة من تاريخ صُنع بكفاءة ، بفعل مبادرات اصطلاحيه ، تعجب عند استعراضها من مدى أفق أولئك الرجال ، وسلمت منجزها للقادمين لكنها بقيت حيه في الذاكرة ، ولم ينقطع حبلها الموصول ، من عمق العتمة إلى مشارف النور ، أما أنا فقد أكملت المرحلة الابتدائية ، وتحديد الصف السادس في محافظة خليص ، حيث تأسست أول مدرسه ابتدائية عام ١٣٧٤هـ ، وكان قد سبقني أخي الأكبر ، وتزوج هناك بابنة خاله الشيخ حسن بن عبد الصمد .

O هل هذه التحولات خاصة بتلك القرية فقط أم إنها اكتست صفة العموم لبقية القرى المجاورة ؟

أحسب أن هذه التحولات ملكية لكل أبناء القرية ، وأحسب أنها توزعت على أمكنه أخرى ، وليس فيها ما اختص بحيازته ، غير أنها مشت في غير ما أحسب ، وربما مشت فيما قُدر لها ، لا اذكر بالتحديد متى رأيت مجلة العربي مع معلم الرياضيات ، و أخاله الآن لم يغب عني ذاكرتي ، على امتداد هذه السنوات داخل الفصل ، بين جدران أتخيل لمعانها وامتداداتها ، حتى تحولت إلى ما يشبه الإدراك .

O وماذا عن مصادر المعرفة التي قد تقع بين يديكم مع الأقران من خارج دائرة مجتمع القرية ؟

تلك هي الإطلالة على عالم مختلف ، مثلها مثل شغف الحب الأول ، لا تكف عنه ولا تسأله عن مداه ، ويبقى عالقا كأنما هو طرف حسي ، غير أن مجلة العربي بقيت في متناول يدي ، وقبلت بعد ممانعة كتاب (بلوغ المرام) ولا أذكر أن كنت قرأتها أو احتفظت بها ، هذه التجربة ربما وجهتني إلى البحث عن مصادر أخرى ، لتواصلي مع عالم المعرفة الجديد .

O بودنا أن نستمع منكم لبعض تقاليد المجتمع التي تختزنها ذاكرتكم وتمارسها السيدات آنذاك ؟

كانت قريتي مكان استيطان لممارسات خاصة ، على المتواتر في الشأن العام بكل ملابساته ، كانت أمي وهي زيلعية تنتمي إلى العقيليين ، تقيم ما تسميهِ هي (قهوة المساء) ، أذكر هذا الطقس المجلل بدخان كثيف !! وإن كان الوقت بعد صلاة المغرب ، فأني لا أذكر الأيام الذي تقام فيه تلك الاحتفالية ، ولا سبيل إلى معرفته الآن ، فقد انقطع الدليل بموت والدتي عام ١٤٣٢هـ ، ويبقى السؤال كيف تسللت هذه الطريقة من الزمن النائي إلى المكان النائي ، المتناهي في الطبيعة ، المحرَّر من كل ثقل .

O كيف هي علاقتك بوالدتك وهل كانت علاقة تسودها الحميمة والإفراط العاطفي ؟

والدتي لم تميزني بعناية ورعاية خاصة ، كانت على شاكلة والدها عبد الصمد بن محي الدين ، مشغولة بهموم الناس أصحاب الحاجات من المرضى ، والمصابين وذي الفاقة ، ما استمتعت به كانت روايات أبي عن فتوحات الملك عبد العزيز طيب الله ثراه ، واستتباب الأمن والأمان الذي شعر به الناس ، وروايته عن مرض الجدري الذي فتك بالقرية ، حتى عجز الأهالي عن دفن موتاهم ، وروايته عن جدي عبد الله بن عبد الشفيع الذي استطاع أن يخفف من روعة أهالي القرية ، وكان خالي (الشيخ عبد السلام بن عبد الصمد) عاقد الأنكحة ومفتي القرية وإمامها ، ومرجعها في القضايا الأسرية والشخصية.

O من تتذكر من الأسماء التي كانت تملأ حيزا من نشاط وحيوية القرية ؟

استقطبت قريتي عدد من الوافدين جعلوا من المهن الحرفية والمشاعة والمجانية صنائع ربحية ، فـ (ابن مأوي) حافظا للشعر يرويه بمقابل ، و(حسين الهندي) مارس الختان و الحلاقة بأجر ومعلوم ، (العنبوسي) أقام أول مقهى شغلت فراغا واسعا ،

لشرائح اجتماعيه متنوعة يتجمعون وأنا منهم ، حول (سائقي الشاحنات) فتسرد الحكايات وإفرازات المدن . تلك أسماء كانت

وما تزال في ذاكرة القرية ، وتكلم هي تجليات التعانق والتعالق بين مكة المكرمة وأطرافها من القرى كما هي مسقط رأسي.

O المحطة التي توقف عندها القاص محمد على الشيخ ؟

كانت محافظة رابغ هي المحطة الأخيرة بصحبة أخي (عبد العالي) توقف فيها جزء من حياتي ، لم تتبدل صورته التي كان عليها ، كنت في الصف الأول المتوسط ، وكان هو في الصف الأول من معهد إعداد المعلمين الابتدائي ، وفي يوم ممطر سعيد والنهار بأوله ، غرق في السيل وهو السباح الواثق ، تاركا زوجة ثكلى ، وطفلا رضيعا ، ووالدين مفجوعين ، و أخا وحيدا مغتربا .

O وكيف تجاوزت تلك المحطة ؟

استأنفت الحياة بشكلها السطحي ، وحظيت بعطف من زملائي ، كان اسبقهم زميلا بقي محفورا في الذاكرة (محمد سعيد باكلكا) ، أهداني مجموعه من الكتب ، منها : (ألف ليله وليله – الزير سالم – عنترة بن شداد – وسيرة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه)

O وهل من دعما معنويا ساعدك على ذلك المنعطف ؟

في الصف الثاني المتوسط ، كلفنا مدرس اللغة العربية بكتابة موضوع إنشاء:(بنى رجل ثري مدرسه ، ومسجدا ، ومستشفى في القرية ، فما تأثير ذلك عليها) ؟ في الحصة التالية طلب مني الوقوف أمام الطلاب " محمد ستكون كاتبا في يوم من الأيام " لا يزال الأستاذ علي دويدان – مصري الجنسية – ثريا في ذهني مهماز لا يكف عن الوخز ، أزعم أنه سمَّاني – منذ ذاك – اسما لا أخطئه ظاهرا و باطنا .

O وماذا بعد ؟

في تلك الأثناء تعرفت على شاب يدعى (عبد الله العزبي) تلك هي صفته واسمه ابن رجل ميسور ، كان قد أنهى الثانوية بجدة ، ينعم بحياة مخملية ... ويعيشها كما توفرت له ، أحيا زاوية مهجورة لم أكن أعرف أنها بهذا السخاء ، مدنٌ محمولة على الأنهار والبحار ، وحكايات كألف ليله وليله ، وموائد ، ومواعد ، ويوم في دفاتر العاشقين لكوكب الشرق السيدة أم كلثوم .

O وهل مارست الفعل الثقافي مبكرا ؟

تزوجت ابنة خالي (الشيخ حسن عبد الصمد) بعد الكفاءة المتوسطة ، وأصبحت (أبو سامي) في نهاية السنة الأولى من المعهد الثانوي بجدة ، لذا قادتني الظروف أثناء دراستي إلى العمل بمكتبة خزام ، وكانت مكتبة خزام ، أشبه ما تكون بالمكتبة المتخصصة في هذا المجال ، تستقبل النتاج الفكري ، وتتيح لي حرية الاطلاع بمجانية وغزارة .

O وماذا عن البيئة الثقافية آنذاك ؟

في العام ١٣٨٧هـ ، عام تخرجي من المعهد ، كانت عملية تطعيم التعليم بالخبرات الوافدة لا تزال سياسة تعليمية فرضها المد التعليمي ، هذه الضرورة جعلت المدارس شبيهة بقاعات اجتماع مفتوحة ، تحتضن تخصصات متعددة ، وتجارب متنوعة ، وجنسيات مختلفة ، مما اكسب المسيرة التعليمية معطيات جديدة ، حررت الفكر الوطني من الرؤى الدراجة والمحلية الضيقة .

O وما تأثير ذلك على حياتكم الثقافية بشكل خاص ؟

في هذا المنعطف تعرفت على مدرس اللغة العربية (طالب سالم) بمتوسطة خليص – فلسطيني الجنسية – كان مجموعه من الهوايات ، أبرزها الرسم والخط والتصوير و القراءة ، وهي وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة الاحتراف ، إلا أنها حبلى بالفكرة والمغامرة اعترف لي بأنها حلول بسيطة لمشاكل معقده ، وأن قضيه الإنسان – على حد تعبيره – هي اكتشاف وسيلة تعبير يمرّر عبرها رفضه للاستسلام ، هذه الأوضاع ساعدتني على فهم العصر بكل رؤاه ، وانبهاراته ، واحراجاته ، ومخاوفه . وقادتني إلى البحث التاريخي ، فأكملت تعليمي الجامعي ، وتأهلت للدارسات العليا .

O هل تتذكرون أول ظهور لكم عبر الصحافة الأدبية وما واكبها من تشجيع معنوي ؟

في ٢٥ رجب ١٣٩٢هـ نشرت أول قصه في جريدة المدينة المنورة (العدد ٢٥٦١) بعنوان العودة إلى الصحراء ، وفي ٢٨ رجب ١٣٩٣هـ كتب سباعي عثمان في جريده المدينة المنورة (العدد ٢٨٦٠) " هذا الشاب خامة جيده يعيش في قرية نائية ، حيث يمتهن التدريس ، بدأ على هذه الصفحة بعض قصصه القصيرة الناجحة عن طريق زميلنا علي الرابغي ، محمد علي الشيخ يواصل نشاطه وان كان في بطء ... و أنا أتوسم فيه مستقبلا مشرقا للقصة القصيرة " وفي ١٣٩٣/٨/٢هـ كتب عبد الله الجفري في جريدة البلاد (العدد ٤٤١٧) " محمد على الشيخ كاتب شاب ... صنع له الزميل علي الرابغي عجلات من مطاط ، ومهد له سباعي عثمان طريقا وعرا شائكا ... "

O في ختام هذا اللقاء ما الذي قدمته للمكتبة الثقافية ؟

أصدرت العقل لا يكفي (مجموعه قصصيه) ثم صراع العمالقة في القرن التاسع عشر (بحوث تاريخيه) تلاها رحلة البحث عن الشمس (مجموعه قصصيه) وأخيرا سيرة حياة الشيخ حسن بن عبد الصمد (سيره) والبقية في طريقها إلى المطبعة بإذن الله تعالي .

المد التعليمي في ذلك الوقت فرضت الاستعانة بالخبرات الوافدة

محمد علي مغربي

سباعي عثمان

عبد الله الجفري

علي محمد الرابغي

أم كلثوم

كتب عبدالله الجفري في (البلاد) :

محمد علي الشيخ صنع له الرابغي عجلات من مطاط ومهد له سباعي طريقا شائكا

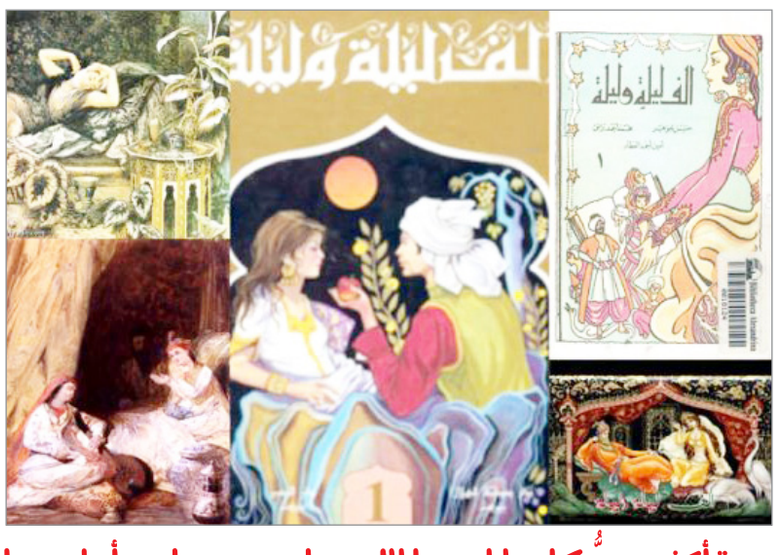

جدة أكثر تمسُّكا بطابعها الاجتماعي وتسامح أهلها

هذه الأوضاع قادتني إلى البحث والتأهل للدارسات العليا